

البيئة وسؤال الأخلاق

د. عمران جودي د. حراث سومية

جامعة عنابة

الملخص:

يبين بحثنا هذا كيف أنّ سؤال الطبيعة أصبح من محاور الفلسفة المعاصرة، حيث يختبر مدى التعلّق بأساس تكذيب جدل الطبيعة المقدم من طرف خطاب الحداثة، آخذين بعين الاعتبار تحليل التيار الأخلاقي في البيئة؛ أين يبيّن أنّ ثنائية الأخلاق/الطبيعة لا يجب تقديمها بصفة عارضة، بدون ترك أيّ مقارنة فلسفية للطبيعة، حيث تظهر فيها الطبيعة غير منفصلة عن الكائن الذي يتجلّى في انعكاس النشاط الذي يجمع بين الإنسان والتقنية في هذا العالم. تجلّي الموجود بدوره لا يعتبر انكشافا بسيطا، كما أنّ التغيرات الطارئة لا تحمل معان بسيطة للأحداث، بل تحمل تماثلا مع الأحداث؛ شكل التغير الموجّه من طرف الكائن نحو الكائن لذا فإن المحافظة على البيئة وتغيير بعض البنيات تحمل بعدا ملحا وضروريا.

الكلمات المفتاحية: البيئة، الأخلاق، الإرادة، التوافق، الإحترام.

Abstract:

Our work shows how the question of nature is affordable within the framework of modern philosophy. It examines the relevance and scope of the dialectic of nature presented in the discourse of modernity. Considering the analysis of the ethical movement in nature, he shows that the dualism of ethics/nature should not be considered in a simplistic way: it can give way to a philosophical approach of nature. Nature appears here as the being who reveals himself "as a result of the repercussions of the act provoked by man and technology in the world". The manifestation of being is no longer a simple unveiling. Intramural changes no longer have the meaning of mere events. They take, in analogy with action, the form of a directed change of being by being. Therefore, the maintenance of the environment and the changes of certain structures acquire a compulsory dimension.

Keywords: environment, ethic, stubborn, compatibility, respect.

مقدمة:

حاول الإنسان منذ القديم، أن يغير وجه البيئة الطبيعية ويستنزف مواردها ساعيا وراء طموحه اللانهائي في معرفة أسرار هذه الطبيعة والاستفادة منها إلى أبعد حدود للسيطرة عليها وتوجيهها حسب ما يشاء وقت ما يشاء، وقد استحدث الإنسان على مر العصور الأفكار والوسائل التي تساعد على تحقيق هذا الطموح وتوطيد أركانه ودعائمه، مما أدى به إلى ارتكاب الأخطاء تلو الأخطاء اتجاه البيئة الطبيعية، حتى بلغت ذروتها في عصرنا الحاضر، وهذا ما جاءت فلسفة البيئة لمعالجته فيما بعد.

فعلاقة الفلسفة بالبيئة علاقة متينة، إذ أن علم البيئة يختص بدراسة العلاقات التفاعلية بين الكائنات الحية وبيئتها، أو دراسة علاقات الكائنات الحية وإيجاد التوافق فيما بينها، والذي يحقق هذا التوافق والإنسجام هي (الفلسفة) إذ أنها تستطيع خلق بيئة منظمة ذات طبيعة جمالية وأخلاقية، تجعل إبداع العقل الإنساني يمارس دوره في وضع بصمته على هذه الأرض، ولا تقتصر مهمة الفلسفة على تحقيق هذا التوافق فيها، بل تقوم بمعالجة المشكلات التي تواجهها البيئة فقد سعى الكثير من الفلاسفة إلى إيجاد حل لهذه المشكلات.

وفي الآونة الأخيرة من الفترة الزمنية حدث انقلاب فلسفي كبير سببه النقاش الفلسفي حول البيئة، فلم يعد الإنسان يمثل مركز الكون بل إن الطبيعة والحياة أخذت حيزا كبيرا في كافة أرجاء الكرة الأرضية، وقد قام هذا الانقلاب هانس جونس، لكن هذا الانقلاب لم يكن وليد اليوم إذ كان هناك الكثير من الفلاسفة المهتمين والمنشغلين بالبيئة وبالطبيعة، مثل (طاليس) و(أرسطو) و(سقراط) و(أفلاطون) وغيرهم من فلاسفة اليونان وكذلك من الفلاسفة المسلمين كالفرابي والكندي والرازي وغيرهم...

أصبحت البيئة هما عالميا وإنسانيا يستوجب أن يتحد الجميع من أجل حماية البيئة، لأنها الإطار الذي نحيا فيه جميعا، ونحصل منه على مقومات وجودنا ونمارس فيه علاقتنا الطبيعية مع بني البشر الآخرين، لذلك كلنا علينا أن نحميها وندافع عنها كي نحافظ عليها من أجلنا ومن أجل حياة الأجيال من بعدنا، وحتى يتحقق ذلك لابد من تنمية الوعي البيئي وروح المسؤولية لدى الأفراد، وتبني مناهج وبرامج التربية السليمة الهادفة إلى أن يدرك كل فرد قيمة وأهمية البيئة، وضرورة استغلال مواردها الإستغلال الأمثل بعيدا عن الإسراف والإفساد واستنزاف الموارد البيئية بشكل غير منظم وغير عقلاني بما في ذلك الموارد الدائمة والمتجددة وغير المتجددة، فضرورة بقاء الحياة على كوكب الأرض تستدعي وتفرض على كل إنسان الالتزام بتحقيق علاقة جيدة بينه وبين الطبيعة.

لكن عندما نستخدم كلمة استغلال خيرات الطبيعة هل معنى هذا أننا أمام عقلية تخومية ترفض تمام الرّفص الإحتكام إلى قانون الأخلاق؟ ثم ما موقع الأخلاق أمام طموحات الإنسان في السيطرة على الطبيعة.

1- بداية ظهور أخلاقيات البيئة:

لم تعد القضية البيئية كما تطرح في العالم اليوم قضية جزئية ضمن قضايا أخرى سياسية واقتصادية... بل أصبحت قضية عالمية تعبر عن مأزق إنساني يتمثل في تهديد أسس الحياة على كوكب الأرض، وفي تهديد النوع الإنساني في بقائه نتيجة سوء تفاعل الإنسان مع الطبيعة عبر منظوماته الأخلاقية والقيمية، وليس لأسباب طبيعية، فالقضية البيئية اليوم تبحث على أخلاقيات بديلة أو عن عقد طبيعي بين الطبيعة والإنسان، عقد يقوم على تأسيس علاقة احترام متبادل بين البشر وبقية الكائنات الطبيعية، فلقد أحدث التقدم الهائل في التكنولوجيا طفرة هائلة في العلوم البيئية الزراعية وكان لها تأثير مباشر على صحة الإنسان وغذائه، وقاد هذا التقدم التكنولوجي إلى طرح قضايا ومشكلات أخلاقية كان لابد من البحث فيها، فالأخلاق في جانبها التطبيقي لا تبحث في النظريات الأخلاقية التقليدية بشكل مجرد، ذلك لأن الأخلاق التطبيقية كجزء من الأخلاق الفلسفية بشكل عام تتعلق بالمشكلات الأخلاقية التي تنتج عن بعض الممارسات، وقد سعى الفلاسفة إلى نقل مشكلات البيئة إلى الفلسفة وهو ما تمخّض عنه نقاش فلسفي أحدث انقلابا كبيرا كانت خلاصته هدم مركزيّة الإنسان (روس، 2001، ص 14).

من هنا أصبحت البيئة موضوعا للأخلاق فنشأ ما يسمى إطيكا البيئة والأخلاق البيئية، والتي تهتم بما ينبغي أن يكون عليه السلوك الإنساني اتجاه الطبيعة، وبذلك تعتبر فلسفة البيئة أحد فروع الأخلاق البيئية بحيث لا تقتصر على البشر وحسب بل تشمل الكائنات الحية جميعا، وبالتالي فإن المشاكل البيئية التي يعاني منها العالم اليوم تشخص درجات عجز الإنسان عن ضبط وتنظيم أفعاله، وطرق انتاجه المتعددة في علاقة البيئة

الطبيعية، وهذا التأثير الذي يولده هذا العجز يهدد حياة باقي الكائنات الحية، وبذلك يجب أن يعيش الإنسان وفقا للطبيعة وليس على تناقض معها وبهذا تصبح غاية الأخلاق أن يحكم الإنسان العقل في كل سلوكاته، و بالتالي فإن الإنسان بهذه الحياة لا عمل له إلا أن يعيش وفق الطبيعة.

ترى فلسفة البيئة أنه من الممكن حل المشكلات البيئية وتجاوز الأزمات التي يعاني منها الإنسان، بالإعتماد على أخلاقيات جديدة لا تنحصر آفاقها في الدفاع عن حق الإنسان في العيش والبقاء فحسب، بل تتجاوز ذلك إلى إدماج باقي الكائنات الأخرى والتشديد على منح هذه الكائنات حقوقا واعتبارات أخلاقية، من خلال إسقاط تلك المعايير المتمركزة حول البشر، و في هذا الإطار يتم الحديث عن حقوق الحيوان وحقوق البيئة وأخلاق الأرض (الأخضر، 2015، ص 82).

تعد أخلاقيات البيئة ضمن الأخلاقيات التطبيقية المتعلقة بالممارسات، وهي تهتم بدراسة عقلية محضة للعلاقة بين الإنسان وبيئته، كما أنّ البحث عن الآليات التي من خلالها يمكن معرفة المشاكل البيئية تجعلنا نلاحظ أنه لا يوجد في هذا الشأن أبحاث كثيرة بالقدر الكافي، سيما ما تعلق منها بالنتائج أو الآثار المرتبطة إرتباطا مباشرا بأفعال البشر حتى بداية القرن 19، ولقد بدأ ظهور أخلاقيات البيئة بشكل جريء وبتسميات عديدة: إيكوصوفي، إيكوفيلسوفي إيكواتيك بداية من الستينات، لكن هذا المفهوم بدأ يتكون في السبعينات من القرن الماضي في الولايات المتحدة الأمريكية بفضل رواية الفيلسوف ألد ليوبولد، الذي كان مدافعا مخلصا عن الطبيعة والأب المؤسس للعلوم البيئية الحديثة، حيث أجرى تجربة نموذجية من أجل إعادة تأهيل البيئة بمشاركة زوجته وأبنائه، أين قام بتطبيق مجموعة من القيم الأخلاقية التي تهدف في مفهومها إلى تجسيد النظريات الأخلاقية والفلسفية المتمركزة حيويًا، وتعدّ الأخلاقيات البيئية طريقًا جديدًا يساعد على مواجهة التحديات الجديدة المرتبطة بالتطور السريع والمتزايد للتكنولوجيا، وهو تطوّر كثيرًا ما يؤثر سلبًا على الإنسان والتنوع البيولوجي على كوكب الأرض بأسره، حيث تشمل البيئة عددا من القطاعات في آن واحد مثل القطاعات السياسية والإقتصادية والتعليمية والعلمية، من هنا كانت البداية الحقيقية للحركة البيئية التي تعمقت ووصلت إلى المجال السياسي وظهور ما يسمى الخضر، ولفت الإنتباه إلى ضرورة أن يشمل الإعتبار الأخلاقي باقي مكونات المجال الحيوي وليس الإنسان وحده (الأخضر، 2015، ص 83)، بمعنى أنّه يجب أن يتسع مجال البحث الأخلاقي الإيكولوجي ليشمل أخلاق الأرض، وأن توسع أخلاق الأرض حدود المجتمع كي تضم التربة والمياه والنباتات والحيوانات، فما دام هناك أخلاق بين البشر فإنّ هناك ضرورة إلى وجود أخلاق التعامل مع الموارد الطبيعية، حيث يجب أن نعامل الطبيعة باحترام من خلال اعتبار الإنسان الكائن الحي الأكثر وعيا والأكثر إدراكا لضرورة التعاون المتبادل بين الكائنات الحية في الطبيعة، وهو الموجود الوحيد المعروف بأنه يستطيع أن يدرك المسؤولية، ومن ثم عليه اتباعها وتحملها، و هذا ما يفرض عليه الإلزام الخلقي والمسؤولية الخلقية كونه أكثر الكائنات فاعلية في هذا الوجود.

أنتج المجتمع الحداثي قضايا بيئية عدة تنصدر صورة المشهد الحالي منها تضاعف انبعاثات الغازات الدافئة، وتدمير طبقة الأوزون والتلوث على أنواعه واختفاء أو انقراض فصائل من الحيوانات، هذه الأزمات البيئية الخطرة التي تهدد كوكبنا تشترك فيها الإنسانية جمعاء، ولكي نتمكن من العيش على هذه الأرض يتوجب

علينا تبني سلوكيات جديدة والتعامل مع البيئة وفق معالم عقلانية، ولا يعني هذا أن نرفض الحادثة في بعض جوانبها والبحث عن قيم جديدة لأخلاقيات للبيئة أو أخلاقيات الأرض، وهذا الإنشغال هو الذي دفع الفلاسفة المهتمين بقضايا البيئة من طرح تساؤلات أساسية حول علاقة البشر بالطبيعة.

تبدأ مشكلة الإنسان مع البيئة نتيجة الاكتشافات والتطور التكنولوجي الذي حققه أثناء صراعه مع الطبيعة من أجل الحفاظ على بقائه، لكن كلما تطور الإنسان كلما هدد بقاءه على كوكب الأرض، لأن جوهر المشكلات البيئية يعود إلى هذه التكنولوجيا التي أثرت على المنظومة البيئية وفي الإنسان بوصفه جزء لا يتجزأ من هذه المنظومة، حيث كلما تطور الإنسان أهمل الجانب الأخلاقي، مما أدى إلى تطور العقل الإنساني بعيدا عن الأخلاق بشكل عام، وما لم يكن هناك وعيا أخلاقيا موازيا للتطور التكنولوجي فإن هذا ينذر بكارثة بيئية (غصن عبود، 2006، ص 219)، بمعنى أن التطور التكنولوجي وضع البشرية في مواجهة الأزمات نتيجة التغيرات والتحولات التي مسّت الطبيعة وصورة الأرض، وكذا بعض النتائج الكارثية للإنجازات التكنولوجية، كلها ساهمت بشكل لافت في ظهور مشكلات كثيرة سيما ما تعلق منها بالأخلاق، ومنه فإن الحياة على كوكب الأرض هي حياة مهددة بالوسائل التقنية والتكنولوجية، والتي تتطلب سلوكيات أخلاقية مراعية لحقوق الأجيال القادمة بالتوافق مع الكائنات الأخرى، فمثلا ظهرت بشكل كبير في الدول المتقدمة تشريعات مرتبطة أساسا بمعاملة الحيوانات، لكن دون أن يكون هناك اجماع على حقوق معينة للحيوانات.

خلقت التقنية وأدوات الإنتاج المتطورة التي أحرزها الإنسان مشاكل بيئية جديدة لم يشهدها من قبل، ولا تنفك عن التحول والتبدل ضمن التقنية الجديدة التي تفرض نفسها عليه، و تقضي منه جهدا دائما من التغيير والتكيف وفقدان الإتصال بالطبيعة والقطيعة المفاجئة مع الماضي، ونبذ الأخلاق والتقاليد العريضة التي كانت تنهض على أسس تجريبية لا تخلو من الحكمة، على أن تثير في نفس الإنسان الحديث مشاعر القلق والحرمان وسط عالم يتصف بصفات متناقضة تشكلت بتطور وسائل النقل (جان ماري، 1994، ص 13)، وتزايد الطلب على مصادر الطاقة والإعتماد المتبادل بين القوى المختلفة وعدم المساواة والصراعات التي تهدد بقاء الإنسان على المستوى الثقافي والبيئي، يقول ما يكل زيمرمان: "إن الأخلاق التي يتبناها معظم البيئيين تتطلب الحفاظ على المنظومات البيئية، وبالتحديد الأنواع النباتية مهما كان الثمن حتى لو أدى ذلك إلى قتل الحيوانات الثديية العاشبة المألوفة، بينما الأخلاق التي تبناها الناشطون في تيار تحرير الحيوان تفضل الحيوانات الثديية حتى لو أدى ذلك إلى المزيد من التدهور البيئي وتآكل التنوع الحيوي... إن الأكثر أهمية بالنسبة إلى هدفنا يتمثل في أن تيار تحرير حقوق الحيوانات حرث أرضا جديدة في الفلسفة الخلقية عندما خطا إلى أبعد من حدود الجنس البشري" (زيمرمان، 2006، ص 7).

نستنتج من هذا القول أن كيفية الحفاظ على البيئة تتمثل في فئة تركز على البيئة النباتية وأخرى على البيئة الحيوانية إلا أن هناك من يصرون على ضرورة الحفاظ عليهما معا، إذ أصبح ما نسميه اليوم علما لم يعد تلك الحكمة والمعرفة اللتين تتحدد بهما علاقتنا بالطبيعة، إنه ليس العلم وإنما هو العلم الذي يستهدف الطبيعة قصد امتلاكها، فلم يع الإنسان كيفية الاستفادة منها باستخدامه للتكنولوجيا المتطورة، واستغلاله لشتى إمكانيات البيئة وطاقتها وتحويلها بالشكل الذي يتناسب إلى تطلعاتها في حياتها المعاصرة، حتى أصبحت

غير قادرة على حفظ توازنها الطبيعي، ومن هنا فإنّ دعوة الغرب لأخلاقيات بيئية جديدة فيها نوع من التناقض كما يقول زيمرمان: "النظرة الغربية المهيمنة لا تتسجم مع الأخلاق البيئية، فالطبيعة وفقا لها تعد ملكية حصرية للإنسان" (زيمرمان، 2006، ص 43)، وبذلك تعد الفلسفة البيئية أهم فروع الفلسفة التطبيقية التي تهتم بدراسة البيئة ومشكلاتها الناتجة عن الإستعمال غير عقلاني والمفرط للمصادر الطبيعية، وعلى هذا الأساس انتقلت الأخلاق البيئية لتصبح في بؤرة مناقشات الأخلاق التطبيقية، وبالتالي فإن الأخلاق البيئية هي أخلاق تطبيقية مرتبطة بالممارسات كونها تربط بين الفلسفة وواقع الحياة.

إنّ تطوّر الأخلاق البيئية ظهر بشكل جدي سنة 1988، حيث ظهرت عدة كتابات والتي تعتبر الميلاد الحقيقي لها مثل: كتابات تايلور، ولستون، هارغروف، نورتن، والتي حاولت إيجاد الصيغة المشتركة قصد إعطاء البعد العالمي لمفهوم الأخلاق البيئية عند كافة المجتمعات ولو بشكل نسبي، من خلال استحداث المؤسسات والجمعيات قصد توحيد النظرة، وإيجاد الأطر الأخلاقية ومن ثمة محاولة التطلع لأخلاقيات بيئية سامية تحكم المجتمع الدولي.

من خلال ما سبق نستنتج أن غياب المنظومة الأخلاقية عن تطور البحوث العلمية وتطبيقاتها هو من أهم أسباب ما يحدث الآن من دمار للبيئة.

أ - البيئة وفلسفة ليوبولد Aldo Leopold (1887، 1948):

تعتبر الفلسفة البيئية ذلك المجال الفرعي الفلسفي المنهجي الحديث النشأة والأقلّ رواجاً في الأوساط الفكرية، متأثرة في بدايتها بأعمال Western press، ففي الحقيقة نظرية الأخلاق البيئية الحالية هي عبارة عن توسيع لأفكار ليوبولد في المجال الفلسفي والأخلاقي، حيث جسد فكرة أخلاق الأرض التي تعني مسؤولية الأفراد اتجاه الأرض التي يعيشون فيها تم نشر أفكاره عاما بعد وفاته، ولم تلق نجاحا كبيرا في البداية لكن مع مطلع 1970، ومع بداية الصحوة والإلتفات للأمور البيئية أصبحت أفكاره مرجعا مهما.

الفلسفة حاليا مفهومة على أنها دراسة المفاهيم خصوصا المفاهيم التي هي عامة أو مجردة مثيرة للجدل، ومن بعض المواضيع أو الأسئلة الأساسية للفلسفة نجد: ما طبيعة العالم من حولنا (مسائل معرفية)؟ ما هي طبيعة وجود الإنسان وطبيعة المخلوقات الأخرى (مسائل ميتافيزيقية)؟ وما هي العلاقة التي تربط الإنسان بعالم المخلوقات الأخرى (مسائل أخلاقية)؟ لهذا فإن من يحاول إيجاد أجوبة لأي من هذه الأسئلة فإنه بدون شك يشارك في إثراء الفلسفة، وبالرغم من أن ليوبولد ليس فيلسوف أكاديمي إلّا أنّه أدرك أهمية تقديم أجوبة وحلول لتلك المسائل أو الاستفهامات (Nelson, 2009, p741)، فمثلا عندما نشير إلى أن حقيقة حفظ الموارد الطبيعية لم تكن في تقدم استنتج ليوبولد أنها لم تعالج مشاكل أساسية أخرى، حيث كتب: "الدليل و البرهان على أن الحفاظ على البيئة لم يلامس بعد هذه الأسس السلوكية يكمن في حقيقة أن الفلسفة والدين لم يصغيا بعد إليه، ربما توجد الآن محاولة لجعل عملية الحفاظ (على الموارد) سهلة لأن التفكير الفلسفي غالبا ما كان صعبا لكن ضروري بمكان.

إعتقد ليوبولد بذلك التفكير حقا حتى ظهرت بحوث فلسفية شاملة حول الخلاف القائم على مشكلة الحفاظ، هذا الأخير لا يمكن أن ينجح لكونه كبرنامج، زيادة على ذلك كان يبدو أن ليوبولد مقتنع خاصة أثناء سنواته

الأخيرة أن الطريق الفلسفي والأخلاقي، يمثلان الطريقة الوحيدة لتحقيق الصحة والعافية البيئية الطويلة المدى، كما لا يكون إلا بالتعمق في الطريق الفلسفي والأخلاقي، وفي مؤلفاته الأخيرة نلمس اعترافه بأهمية ممارسة الفلسفة خاصة عندما أدرك أن قضايا الحفاظ على البيئة كانت بشكل أساسي فلسفته، فقد استجاب فلاسفة البيئة للنداء وعملوا على كذا نوع من الأخلاق خلال 25 سنة الماضية، بحث واستكشف الفلاسفة البيئيون عن مشاكل وقضايا أساسية تتعلق بطبيعة الإنسان، الطبيعة، علاقة الإنسان بالطبيعة عن طريق تحدي الأخلاق التقليدية، لهذا المسعى يحاول فلاسفة البيئة والأخلاق أن يثبتوا تلك المسائل الفلسفية بشكل غير مسبوق من ناحية الكم والكيف.

* الارتباط بين النظرة إلى العالم والأخلاق:

الأخلاق لا تنشأ من الفراغ يعني أننا لا نتصرف بطريقة معينة أو نعتقد أنه ينبغي على الآخرين التصرف بطريقة معينة، نحن نحدد أفعالنا لأسباب، فالعديد من الأسباب التي تجعلنا نعتقد بأن بعض الأفعال المعينة هي صحيحة أو خاطئة جيدة أو سيئة، تعتمد على حالة العالم الذي وجدنا أنفسنا نعيش فيه، فما نعتقد أنه واجب علينا فعله (وما نفعله غالبا)، هو في مكان آخر يعتمد بشكل كبير على ما نفهمه من طبيعة العالم لذلك بالنسبة لـ ليوبولد، والعديد من المهتمين بالأخلاق البيئية لها علاقة بمسائل حول طبيعة العالم من حولنا، فالتغيير الأخلاقي يتأثر فقط بوسائل تعديل نظرة الشخص إلى العالم وطريقة تصوّره له.

لاحظ ليوبولد أنه لا يوجد بعد أخلاق تتعامل مع علاقة الإنسان بالأرض والمخلوقات الأخرى التي تنمو فوقها أبعد من هذا، فقد أدرك أن التغيير في ضميرنا الجمعي يجب أن يتبع تغييرات أساسية في وعينا الجماعي، إذ لم تحقق تغييرات هامة أبدا بدون تغييرات داخلية على مستوى تأكيداتنا الثقافية، إلتزامتنا، تأثيراتنا ومعتقداتنا، بقي أن نعرف أيضا أن الخلق البيئي المناسب لن يكون مناسباً إلا بتحويل المعرفة والميتافيزيقيات البديهية التي تؤمن بها (Nelson, 2009, p743)، فالكثير من الحقائق التي نؤمن بصحتها، جاءتنا عن طريق علم الأيكولوجيا (علم البيئة)، فقد كان ليوبولد مهتماً بالإيكولوجيا ليس كعلم أو مصدر معرفة وإنما بنتائجها الفلسفية، وكان مهتماً بما تكشفه الإيكولوجيا عن طبيعة الإنسان والطبيعة وكذا طبيعة العلاقة بينهما، ولقد أدرك ليوبولد أن علم البيئة تحدى الفرضية الأساسية التي تعتبر العالم كآلة.

إن علم البيئة يتحدى بوضوح النظرة الميكانيكية التقليدية التي تربط الإنسان بالطبيعة، والتركيز على الأنظمة البيئية والأصناف كأنظمة ذات علاقة متبادلة مع بعضها، وأن أي تغيير بسيط من تلك العناصر سيعرقل بشكل كبير على نظام عملها، حيث أدرك أن اكتشافات علم البيئة ليس عبارة عن مجموعة حقائق علمية مهمة وفقط، وإنما كانت نتائج فلسفية أصلية، وبالنسبة له تحويل النظرة إلى العالم، بالإضافة إلى تصرفات الأخلاقية كانت تكمن في علم البيئة.

* التأسيس الفلسفي لأخلاق الأرض:

ذكرنا سابقاً أن ليوبولد ساهم في إثراء الفلسفة من خلال إعادة تأويل وتفسير هوية الإنسان وعلاقته بالمخلوقات الأخرى أو علاقته بالأرض، لكن مساهمته الحقيقية في الفلسفة تتمثل في فكرة أخلاق الأرض،

فبحث في علاقة الطبيعة أين لاحظ أن هناك عملية تاريخية للأخلاق متعلقة بأصل النمو والتطور، واعتقد أن تطور الأخلاق يمكن فهمه عن طريق البيولوجيا (علم الأحياء).

أخلاق الأرض إذن، هذه هي بداية الأخلاق البيئية في العلوم المعاصرة والتي تدرج البشر كجزء من المجموعة الحية وعلم البيئة يعرف الطبيعة على أنها مجموعة حية توضح أن البشر هم أعضاء ينتمون إلى مجموعة لا يعتبرون الأهم فيها أكثر مقارنة بالعناصر الحية الأخرى، حيث نجد فكرته تتمحور حول توسيع المجموعة أو الفئة المذكورة سابقا لتضم عناصر أخرى غير إنسانية كالتربة المياه النباتات والحيوانات، أو كل تلك العناصر مجتمعة نسميها الأرض، تلك الأرض عبارة عن مجموعة تضم المفهوم الأساسي لعلم البيئة، و يجب علينا أن نحافظ عليها إنطلاقا من مبدأ أخلاقي واعتراف ليوبولد هذا يدل أن الأفراد يلعبون دورا مهما في الحماية الحفاظ على المفهوم الواسع لتلك المجموعة (يقصد مفهوم الأرض كما يعرفه هو)، وبالتالي فإن مفهوم "أخلاق الأرض" (Land Ethic) يعكس وجود ضمير بيئي يعكس بدوره الإيمان بمسؤولية الفرد اتجاه صحة الأرض، كما طالب ليوبولد بأن يتسع مجال البحث الأخلاقي الإيكولوجي ليشمل أخلاق الأرض وحدود المجتمع لتضم التربة والمياه والنباتات والحيوانات، وأكد أن هذه الأخيرة (أخلاق) تغير دور الإنسان العاقل من مستعمر لمجتمع الأرض إلى عضو هادئ ومواطن فيه، وتقضي منه إحترام الأعضاء الزملاء له (الكائنات الحية الأخرى) وأيضا احترام المجتمع بحد ذاته (Nelson, 2009, p149)، ويقصد أنه يجب تغيير منظومة التفكير الإنساني إزاء الأرض فبدل أن ينظر الإنسان إلى نفسه على أنه يجب تغيير منظومة التفكير الإنساني إزاء الأرض، فبدل أن ينظر الإنسان إلى نفسه على أنه سيدها ومتحكم فيها، عليه أن ينظر إليها على أنها موطن و أنه جزء منها وبالتالي ينبغي على الإنسان أن يحافظ على هذه الأرض بكافة عناصر البيئة الموجودة فيها.

ب_ هانس جوناكس Hans Jonas (1903-1993) وأخلاقيات البيئة:

من بين الفلاسفة المعاصرين الذين اهتموا بأخلاقيات البيئة نجد هانس جوناكس صاحب كتاب (أخلاق المسؤولية) حيث ينطلق في هذا الكتاب من مسلمة تطور العلوم الإنسانية والتقنيات كما هو، يشكل تهديدا ويجعل طبيعة الإنسان بالذات موضع الخطر، فالأخلاق تتركز على العلاقات بين الناس في حين علينا الآن أن نفكر في التزاماتنا اتجاه الطبيعة، كما أن هذه الأخلاق ترقب الحاضر في الوقت الذي علينا فيه التفكير في مسؤوليتنا تجاه المستقبل (المحمدوي، وآخرون، (2014)، ص67) بمعنى أنه يجب على الإنسان أن يتحمل المسؤولية إزاء الطبيعة والأجيال المقبلة، ومعلوم أن بول ريكور من الفلاسفة اللذين رأوا في الفلسفة البيئية أن هانس جوناكس يعتبر مكسبا قيما، وحاول من خلال المقالات العديدة التي نص بها هذا الفيلسوف الألماني إبراز مقاصدها الفلسفية والعملية وتداعياتها على مستوى إدراك الأبعاد الكونية والإنسانية آنيا و مستقبليا، ولذلك نجد ريكور يقول بأن الإحساس العميق بالإنتماء إلى المنظومة الكونية لا يتعارض مع التفكير في إعلان حقوق البشرية في المستقبل، وهذا رهان جوناكس الذي يعتقد أن مستقبل البشرية ليس مضمونا بطبيعته ولا ينبغي أن يكون فقط مرغوبا فيه بل مفضلا ومقيما، بمعنى عيش بالطريقة التي تتيح بها أن تستمر البشرية بعدك ولكي تستمر البشرية بعدنا يضيف بول ريكور معلقا على جوناكس لابد أن تستمر

الطبيعة بعدنا، وبهذا المعنى فإن الحفاظ على الطبيعة يتأطر فلسفيا ضمن مشروع إنساني، ومقتضى ذلك حسب بول ريكور هو ضرورة القيام بنقد العقل الأداتي إنطلاقا من الأخلاق التواصلية المنبثقة فلسفيا من أخلاقيات الإنتماء.

يرى جوناكس على أنه يجب أن تتناسب مسؤولية الإنسان مع تقدمه التكنولوجي، إذ يقول أن مسؤولية الإنسان يجب أن تسر بذات خطى قدرته، نستنتج هنا ركيزتين من ركائز المسؤولية الإنسانية، فهناك أولا الجانب الأنطولوجي المتمثل بضرورة تناول الطعام لضمان البقاء على قيد الحياة، و ثانيا الجانب الظرفي المتعلق بأهميته تنظيم العمل ونشاط الإنسان من أجل استغلال ما تقدمه الطبيعة من إمكانات استغلالا سلميا متزنا، ليس بديها أن تستمر البشرية في البقاء حيث نستطيع ذلك فقط بإرادة قوية حتى تصبح المسؤولية موضوعا للأخلاقية، يتضح إذن من خلال تتبع مسيرة "يوناكس" الفكرية أنه يعطي لمفهوم المسؤولية وظيفة أخلاقية دقيقة جدا، ينطلق من قناعة أن العلم والتكنولوجيا الحديثة قد أثارا قطيعة في العلاقة بين الإنسان والطبيعة، والإنسانية قادرة من الآن فصاعدا بفضل التكنولوجيا على التعديل الجذري أو حتى على تحطيم محيطها الطبيعي، وهو ما ينتج عن هذه القدرة واجب أخلاقي جديد يتّصف بالمسؤولية كونها ضرورة حتمية (مطلب، آخرون، 2015، ص 328)، فالمسؤولية أخلاق وعلم بمعنى تنطلق من ضروريات حتمية وقناعات شخصية ويصبح من غير الضروري أن نقدّم تبريرات أخلاقية وفق الدين أو أخلاق الدين، بمعنى أن أخلاق المسؤولية هي أخلاق سلوك و عمل و واقع، والواقع الأخلاقي يملّي على الإنسان أخلاقيات جديدة تجد لنفسها تبريرات خارج نطاق النص الديني، ويقدم جوناكس ثلاث مبررات لأخلاق المسؤولية هي:

- إعادة النظر في جميع أفاق الإيمان بالذات وعدم الخلط بين الحكمة والأثانية وقواعد الأخلاق، واتجاه الإجراءات الأخلاقية والتفكير بجدية في قاعدة الإعراف، فإنّ تكوين الأخلاق من الدّعاوي والمطالبات والحقوق والإلتزامات تعدّ حتميات الحياة، فهذه الأخلاق لها بنية مختلفة عن أخلاق العقل لدى أرسطو كونها مفتوحة ضمن نمط الحياة الجديدة.

- إن إرادة الفعل يجب أن تعبر عن حسن النية وليس عن التعسف، لأن الجميع مسؤول عن أفعاله من خلال كل شيء فإن إدعاء الأخلاق على أسس الحرية قد لا يكون ملزما، كما أنّ الهيكل الذي يحدّد علاقة الأخلاق بالحرية من أجل تحقيق مسؤولية يعد أعلى مرتبة من الحرية الملزمة.

- الأخلاق هي الأساس في العالم وربما من أجلها خلق العالم، فالأخلاق المعيارية والواقعية الفيزيائية كلها نواح حتمية، وتمتلك الإنسانية الحقّ في أن تتطور وتستمرّ في هذا العالم على هذا الأساس الذي خلق من أجله كما لو أنها (الأخلاق) الأساس الأنطولوجي للإنسانية.

أراد هانس من خلال فلسفة مفهوم المسؤولية البحث عن جوانب أخلاقية وقانونية وإنسانية، فدور المسؤولية يحتمل الإنسان الوعي بالوجود الأخلاقي والوعي بطبيعة المسؤولية وحجم المسؤولية ونوع المسؤولية، كما ركز على أهمية الوعي بالمسؤولية كونها فعلا أخلاقيا نابعة أساسا من الضمير الحي، الذي يدفع بالإنسان دوما إلى أن يتبنى المسؤولية كاملة أمام الجميع، فكانت رؤية جوناكس من خلال البحث على إعادة النظر في

المسؤولية كاملة أمام الجميع مشروعا نحو إعادة النظر في مسؤولية الإنسان المعاصر بوجه ما يتعرض له من تغييب لكثير من مزايا الإنسانية، بأسباب تتصل بقطاعات كبيرة في الدولة.

فالطبيعة التي كانت موزعا للتأمل أصبحت مجالا للسيطرة مما جعل الفعل الإنساني (l'agir humain) ينحرف ويتحول في جوهره بإيعاز من التقنية الحديثة وإفرازاتها الهائلة، هذه الطبيعة التي كانت قائمة بذاتها وتعتني بنفسها وبالإنسان في آن واحد، ولم تكن بمقتضى ذلك موضوعا للمسؤولية الإنسانية (Johnas, 26, 1990, p)، أصبحت بالفعل أفق المستجدات الحاصلة في الحقل التقني ضحية، وهو الواقع الذي فرض ضرورة التفكير في وضع إتيقا جديدة تختلف عن الأخلاق التقليدية التي كانت تعني بالإنسان فحسب، لأن العلم لم يعد محايدا كما اعتقد الوضعيون، والمعنى يتمثل في أن نؤسس مسارا أخلاقيا جديدا يتناسب والنتائج التي تفرزها أفعال الإنسان وتصرفاته، أي "إفعل بحيث تتوافق آثار أفعالك مع استمرارية حياة إنسانية أصلية على الأرض..." (Johnas, 1990, p40)، أي لنا أن نفعل ما شئنا حتى أن نعرض حياتنا للخطر شريطة عدم المساس بالإنسانية.

لقد صار من الضروري إعادة النظر في التطور التكنولوجي بأن يوضع موضع نقاش ومساءلة لأنه جعلنا نعيش في نوع من العدمية التي ارتبطت بالتكنولوجيات العلمية، وبتنا أحوج ما نكون إلى تأسيس أخلاق مستقبل، بإعتار أن وجود الإنسان لا يتعلق بالماضي والحاضر فحسب، إنما بوجود ويمتد نحو المستقبل وهو مستقبل محفوف بالمخاطر من كل جانب، خطر الانقراض الكلي للأنواع وعلى رأسها الإنسان وخطر استنفاد الموارد الطبيعية وتدمير البيئة بفعل النفايات النووية إلى جانب التلاعب بالجينات...

لقد استبعد الإنسان داخل فضاء محاضرة قامت على أسس مغلوطة، تحالف فيها العلم مع التقنية والصناعة وجعلته موضعا لها، هذه الحضارة التي استهدف عقلها الأنواري ومشروعها الإنساوي الحديث في البداية فسكنتها إرادة المعرفة من جهة وإرادة الهيمنة من جهة أخرى، والتي ما فتأت تنحرف لصالح النمط الإستهلاكي الذي راح يزداد شدة جبروتا، إنه السياق العام الذي انطلقت منه أطروحة جوناس عندما حاول التأسيس لمفهوم المسؤولية الجديد، لأنها مسؤولة عن المستقبل أي على الأجيال القادمة التي تتهددها في الحاضر، أو مسؤولة اتجاه من لم يوجد بعد، ومنه بعث أخلاق جديدة ينبغي تبنيها على المستوى السياسي حتى تتحول إلى فعل وممارسته، هذا الشعور ينبعث فينا بسبب الهشاشة (Fragilité) وخوفنا المتعظم على من نحب تماما كما في وضع الوالدين اتجاه المولود الجديد والذي يحتاج إلى أن يحيطانه بحبهما ورعايتهما (Johnas, 1990, p 185)، لأنه بغير ذلك سيكون كائننا معرضا للتهديد بعد الوجود، وهي كما يبدو مسؤولية تقوم على الحاجة بالدرجة الأولى والالتزام بالواجب، إنها في الواقع كما يقول جوناس مسؤولية أنطولوجية اتجاه فكرة أو مفهوم الإنسان والتي ينبغي حمايتها (Johnas, 1990, p 95).

في هذا الإطار أشار بول ريكور في حوار أجرته معه مجلة Ecologie Politique إلى ضرورة التحام السياسي بالعلمي أو التقني والإيكولوجي، من خلال لجان محلية ودولية تختص بالمناقشة العامة لمثل هذه المشاكل التي صارت تكتسي بعدا كوكبيا يصبح فيه البعد الإيكولوجي جزءا من فنّ الحكم، حيث طرح مفهومًا عميقًا للإستثناء الإنساني Sentiment d'exceptionnalité de l'homme، وذلك على اعتبار أن

الإنسان جزء من الطبيعة لا محالة، إلا أن الجزء الوحيد المميز بالمعرفة والقدرة على التساؤل التي تعد امتيازاً ومركز شقاء له في الوقت نفسه إلى جانب المسؤولية يكمن داخل المنظومة الكونية، ومن هذا المنطق ينبغي إقامة التوازن كما يقول ريكور بين الإحساس و الانتماء من زاوية، وبين الإحساس بالإستثناء داخلها من زاوية أخرى لأنّ الإنسان موقعه الخاص في النظام البيئي وهي فكرة سبق أن تعرض إليها ماكس فيبر (1864_1920) M.Weber و ماكس شيلر Max Scheller (1874_1928) على حد سواء عندما قابلا بين مفهوم العقلانية (rationalite) التي هي الأصل لمفهوم العقل الأراتي، ولأن شعورنا بالواجب يكون تجاه ما هو هش، فإننا في احترمانا للوجود الإنساني علينا أن نحترم الطبيعة ونشعر بواجبنا اتجاهها، ومن هنا يتجلى الحجم الجديد للمسؤولية اتجاه المستقبل أو اتجاه شروط إمكان الوجود في المستقبل المخيف و المهدد نتيجة التوجس مما قد يؤول إليه الغد، والمعنى أن جوناس يقترح إتيقا المستقبل وهي نظرة تتأسس على إنذار يوجهه للإنسانية جمعاء ولرجال السياسة بشكل خاص، لأنهم وحدهم يملكون السلطة والقدرة على مراقبة الخطر عن طريق قرارات يتخذونها من خلال إحراز نوع من التضامن (Solidarite) مع الطبيعة (Johnas,1990, p 63).

من هنا نرى أنّ جوناس ينادي بضرورة البحث عن سلطة تعلوا السلطة، ويعني بذلك إحداث نوع من الرقابة على القوة التي أحرزها الإنسان على الطبيعة فسخرها أداة يتحكم فيها كيفما شاء، وعلى الخطر التكنولوجي الذي تسببت فيه التقنية، ومنه تكون الأخلاق الجوناسية بمثابة أخلاق التحكم في هذا التحكم.

* نقد جوناس للأخلاق الكلاسيكية:

أدى تقدّم علوم الطبيعة إلى ظهور إشكاليات جديدة وإعادة النظر في قضايا فلسفية وإيتيقية متأصلة في جذور المعرفة وتاريخ الإنسانية، خاصة مع الأزمة العالمية والتي ساهمت في البحث عن علاقة العلم بالأخلاق، هذه الأخيرة التي أصبحت عاجزة عن مسايرة حركة العلم ليصبح الإنسان المعاصر مرجعا لعالم جديد، ومشكلات لا تستطيع الأخلاق الكلاسيكية الإجابة عنها وهو الأمر الذي فرض التفكير لتشريع أخلاق جديدة (العايب، وآخرون، 2015، ص 451).

، قادة على التماشي مع مشكلات العصر والتحذير من الخطر التكنولوجي على الإنسان والطبيعة، ولعلّ جوناس من أبرز المنتقدين للأخلاق الكلاسيكية التي لا تعطي أهمية لتفاعلات الإنسان داخل الطبيعة، ولا تنتظر إلى ما هو حاضر متجاهلة حقوق الأجيال القادمة، ومع هذا التقدم العلمي علينا أن نتصور أسوء العواقب التي تؤدي إلى تدمير العالم، و بالتالي من أجل حماية كوكبنا لا يمكن السير وفق أخلاق مستمدة من التقاليد.

تعتبر جاكين روس أن الأخلاقيات الإيكولوجية العميقة التي نادى بها الفيلسوف الألماني هانس جوناس في كتابه مبدأ المسؤولية من شأنها أن تساهم في التراجع عن مركزية الإنسان، وتأسيس قانون طبيعي تحتل فيه الطبيعة مكان الصدارة ويتم الإعلان عن سقوط ذاتية متسلطة أمام القيم المطلقة والقانون الأخلاقي، بحيث تنوب كل الذوات ويدمجها في إطار بيئي واحد تعترف بحقوق كل العناصر الإيكولوجية في استخدام ما توجد

به الطبيعة من طاقات وثروات، وأن يوجه جهوده نحو استغلال الطاقات المتجددة لتحقيق تنمية مستدامة تأخذ في حساباتها البعد البيئي، فتتجنب أنسة (Humanisation) الطبيعة في مختلف مستوياتها. بها المعنى تصبح الطبيعة موضوعاً للفكر الإتيقي وهو ما يعبر عن بعد جديد للمسؤولية عند يوناس، نظراً إلى أن الأخلاق الكلاسيكية لم تعد تصلح لمشاكل عصرنا وهمومه وعلى رأسها الإنشغال الإيكولوجي الملح، وبالتالي نحن نتجه إلى تكريس جهد جبار للدراسات المستقبلية إذا أردنا العيش في أفضل العوالم الممكنة، فنؤسس لأخلاق كوكبية تعزز وتجسد بشكل جلي ثقافة العيش معا (le vivre ensemble).

2- الأخلاق البيئية الواقع والآفاق:

وإذا كانت فلسفة وأخلاقيات البيئة فرع جديد من فروع المعرفة، فلا يعني ذلك أن الإنسان لم يكن يهتم بالبيئة وعلاقاته بها وأنّ اهتمامه كان موجهاً للمعرفة التجريبية فقط، بل إنّ تلك العلاقة قد تجسدت منذ القديم في تأملاته و تساؤلاته، وهو ما نجده في الفكر الفلسفي القديم سواء الشرقي منه أو اليوناني، وبحلول العصر الحديث وحصول التطورات المختلفة في ميادين العلم التي قفزت بالإنسان إلى مرحلة ازدهار حملت في طياتها الكثير من الأمل والكثير من الخوف من نتائج العلم والتقنية، كانت الضرورة ملحة إلى أخلة العلم والتكنولوجيا حتى لا تقلت نتائجها من يد الإنسان، وظهرت الأخلاقيات التطبيقية التي حاولت أن تصحّ مسار العلم وأن تضع له قيوداً وضوابط في تعاملاته مع المادة ومع الحياة والكائنات والبيئة، كيفما ندرك محاور الأخلاق في عصرنا واقع البيئة التقنية المثقلة بالتهديدات وبالأخطار المختلفة، إن العلوم والتقنيات الحديثة تثير بصورة كبيرة الخوف كما أبان ذلك (يوناس) و ريكور، إن فكرة الخطورة التقنية ترسم في سياق جديد عبر تغيرات كيفية العمل الإنساني، كما أنّ الثقافات الجديدة تجنب زيادة ضخمة أصبحت فاعلة لتقنيات مشبعة بالأخطار الجسام، لدرجة أن الإنسان ينزع إلى التجريب والتجديد، ففي المنطقة التي كانت ممتعة على سلطان الإنسان، أصبحت اليوم تتدخل فيها بوجه الدقة التقنية الإنسانية: "إنه كياننا الموروث" هو إذن الذي صار موضع التساؤل، من هنا دعت الضرورة إلى تفكير قيمي جديد (روس، 2001، ص 18).

لقد خلق الإنسان بعقله وعلمه بيئة بديلة إنها البيئة التقنية، حيث الآلات مسيرة لحياة الإنسان وهي تفقد للشعور والوعي والقيم والأخلاق، لقد عوضت الأشجار والأزهار المصنوعة من البلاستيك الأزهار والأشجار الطبيعية، لكنها دون روح ودون جاذبية، وكأن الإنسان يبحث عن خلق بيئة موازية بعدما عجز عن الحفاظ عن البيئة الطبيعية والبيئة الأم، إنه العالم الافتراضي الذي خلقه العلم وقضى فيه بالمقابل على كل ما هو حيوي وعلى كل ما فيه حياة وروح وشعور وعاطفة، وهو ما دفع بالكثير من المفكرين والفلاسفة في الشرق والغرب إلى أن ينتبهوا إلى الخطر المقبل على البشرية، ويحذرو من مشكل التقانة والمادة التي يفتقر إلى الأخلاق والقيم، ونجد على رأسهم روجيه غارودي ويورغن هابرماس، وبول ريكور، وهانس جوناكس، وإريك فروم وغيرهم ... لقد واجه الإنسان الأمل بالخطر بما جلباه من مخاطر ودمار، فتحول الأمل إلى خيبة، واليقين إلى شك والثقة إلى انهيار، وعليه "عندما يهدد خطر العلم الإنسان عندما تكون التفاؤلات القديمة

عتيقة أو بالية، وعندما ندرك أن العلم يحقق أحيانا أعظم الشرور، كيف لا تستلزم هذه الأخطار القاتلة أخلاقا نظرية جديدة إجرائية ومبيرة في السياق المعاصر .

إن طرح فكرة الأخلاق المعاصرة لفكرة الأخلاق البيئية ضرورة حتمية حتى ننجو من الهجمة البربرية للإنسان على البيئة والطبيعة، وأن ننجو من فعل الإنسان في الطبيعة لأن الإنسان يقوم بالفعل دون أن ينعكس ذلك إيجابا على بيئته وأخلاقه، فعندما أصبح عقل الإنسان غير منصت للقيم الأخلاقية التقليدية وحتى لأخلاق الدين، التي تجاوزها الزمن في نظره، كان لابد عليه أن يضع أخلاقا جديدة ويشر بمعايير تتماشى والتغيرات والتطورات العلمية التي حدثت في حياته، ومن منطلق أنه لا يمكن للإنسان النكوص والتراجع الحضاري والتاريخي، كان لابد من تأسيس قيم إنسانية جديدة تسير المجتمع الجديد.

وبهذا "يعلمنا (هانس يوناس) أن أفعال البشر أصبحت غير معكوسة للمرة الأولى في تاريخ البشر، ومن المعلوم أن الفراغ في الأخلاق النظرية يفرض ذاته علينا، وأن الأخلاق التقليدية غير مؤثرة، وعلى هذا ينبثق نداء الأخلاق النظرية بالحاح، صار من المطلوب قيام تطلع جديد ينهي "لا - أخلاقية" الإنسان المحروم من المرجعية، أين يجب أن نعمل على ابتكار أسس أخلاق نظرية جديدة (روس، 2001، ص 18).

فالتنظير لأخلاق جديدة لابد أن يسبق الأخلاق العملية والتطبيقية، لأن فلسفة الفعل تنطلق من التفكير والتنظير خاصة وأن نتائج العلم ومغرياته أصبحت تغزو الإنسان في بيئته وتداعب نزواته ورغباته التي طالما حلم بأن يحققها فليس لخيال الإنسان حدود، إنه كائن يسعى ليمثل خياله الواسع و هذا ما يدفعه بالضرورة إلى أن يتجاوز في كثير من الأحيان قيما ومعايير ومثلا، لا يقدر أي مجتمع على أن يبقى دون قانون أخلاقي يستند إلى قيم تفهمها أغلبية أعضائه وتقبلها وتحترمها، لم يبق لدينا أي شيء من ذلك، هل تستطيع المجتمعات الحديثة السيطرة سيطرة محدودة على قدرات النزوانية التي تقدمها لنا معطيات العلم على حساب معايير إنسانية مبهجة مصبوغة بنوع من مطالب استمتاع متقائل مادي النزعة.

ومن منطلق احترام الحياة يرى فلاسفة الأخلاق البيئية أن المقصود بذلك هو أن يحيا الإنسان الحياة كما يجب أن تكون، ولتحقيق ذلك لابد من أن تتوفر له الشروط الضرورية لتحقيق ذاته وكيونته، ومن هذه الشروط البيئية مناسبة لذلك، لذلك فإن أخلاق البيئة اليوم تتخذ من الطبيعة موضوع حقوق بمعنى أنه بالإضافة إلى حقوق الإنسان وحقوق الحيوان ظهر ما يعرف بحقوق البيئة، أي أن للبيئة حقوق يجب أن تحترم وعلى الإنسان واجب يقوم به اتجاه بيئته.

و لقد أعلن "هانس يوناس" الثورة في أخلاق البيئة منتقلا من مجرد التنظير إلى مستوى التفعيل، فالوسط الطبيعي بالنسبة إليه منطلق قيم جديدة تركز على مبدأ الحياة واحترام البيئة والطبيعة وحتى الأشياء، لكن السؤال الذي يمكن أن يطرح هو: كيف يمكن أن نجعل من البيئة والطبيعة والأشياء منطلقا لتأسيس القيم الأخلاقية ونحن نعلم أن الإنسان هو منبع القيم؟ كيف يمكن أن تكون للمادة قيم بعيدة عن الإنسان؟ كيف يمكن تطبيق مبدأ احترام الحياة على من لا حياة فيه؟ هل المعايير القيمية تنطلق من الموضوع نحو الذات؟ أليس هذا خطر على القيم الإنسانية؟ ألا يمكن أن تنعكس هذه القيم سلبا على الإنسان والإنسانية؟

هذه الأسئلة وغيرها تجيب عنها جاكين روس في كتابها الفكر الأخلاقي المعاصر متمثلة أفكار هانس جوناك حيث تتساءل لتجيب "كيف نفهم فكرة حق أخلاقي نظري للطبيعة" للمادة الطبيعية" بوصفها واقعا جديرا بالإحترام؟ تلكم أفكار قد تبدو غريبة أو مستهجنة داخل ثقافة، ثقافتنا التي تضم في القلب الحق والإنسانية والشخص، إن الأخلاق النظرية البيئية العميقة برعاية جوناك، ترد فكرة امتياز خاص بالإنسان يجب إعلان حقوق الطبيعة رفض مركزية التشبيه الإنساني، وهكذا توسع أخلاق نظرية مفهوم "الغاية بذاتها" حتى يشمل الطبيعة، ويدل الإعترااف بأن الإنسان وحده غاية في ذاته وأنه يملك قيمة مطلقة، فإن الطبيعة أيضا تطالب بالألا تعامل معاملة الوسيلة بحيث تجعل منها مجرد أشياء لنتيجة محدّدة سلفا (روس، 2001، ص 123).

إن فلسفة الأخذ والعطاء هي التي يجب أن تحكم العلاقة بين الطبيعة والإنسان، وعلى أساسها تبنى القيم الأخلاقية التي تنظم تلك العلاقة، فالطبيعة المعطاة تقدم للإنسان شروط الحياة والعيش واستمرار النوع الإنساني، ويجب بالمقابل أن يقدم الإنسان للطبيعة الإحترام والحفاظ عليها، وأن يحميها لا أن يدمرها، وبداية على الإنسان أن يسقط إنسانيته على الطبيعة وأن يتخلّص من فكرة مركزيته للكون والطبيعة التي دفعته إلى غرور ووهم السيادة الألوهية عليها، وما على الإنسان إلا أن يوقع عقدا مع الطبيعة على غرار العقد الاجتماعي لجون جاك روسو و توماس هوبر، يحدد من خلاله الحقوق والواجبات اتجاه الطبيعة. والواقع يطلعننا على تلك العلاقة الحوارية بين الانسان والبيئة ومنه نجد أن الكثير يعتقد أن حب الطبيعة يضمركه البشر، بمعنى أن الانسان بقدر ما أحب الطبيعة في كل أبعادها البيئية، كلما استنكر الخراب والدمار الذي يلحقه بعض البشر بالبيئة والطبيعة، إن فلسفة الرفض هي التي تقول لا لدمار البيئة بكل مكوناتها، لا للقضاء على الحياة نعم للبيئة الطبيعية الصالحة للعيش والخالية من الأمراض والسّموم وغيرها، والحق أنّ ثمة ثورة كوبرنيكية من نوع جديد تتدلع لم يعد فيها الإنسان مركزا ومرجعية، وإنّ إنسانية مضادة هي التي تظهر في كثير من الأحيان.

خاتمة :

بعد تحليل ومناقشة المشكلة المعالجة في هذا البحث والمتمثلة أساسا في الفلسفة البيئية وأخلاقياتها، وقفت على كيفية مساهمة الفلسفة في فهم مشكلات البيئة وكيف حاولت أن تعطيها حولا ذات صبغة أخلاقية وتربوية ومن هنا يمكن أن نسجل جملة من الإستنتاجات التي حاولنا إيجازها في النقاط التالية:

- لا ينحصر الفكر البيئي في الدفاع عن قضايا البيئة والتصدي لمختلف التصرفات الإنسانية اللامسؤولة اتجاه مواردها، ولا حتى في اتخاذ قرارات معينة والقيام بإجراءات فردية وجماعية وأخلاقية وقانونية من أجل حماية البيئة وعدم استمرارها في التدهور، وهو ما يتعدى التعبير عن فلسفة جديدة تتصور الإنسان في إطار وضع اجتماعي وثقافي وديني متأزم ، وتحاول أن تقدم رؤية جديدة للإنسان في علاقته بمحيطه البيئي.
- لقد قام الانسان بمحاولة تحطيم ما كان يشكل حاجزا وعائقا أمام تطوره، لينتهي بذلك التطور التكنولوجي إلى أزمة خطيرة متعددة الأبعاد في الوعي الغربي المعاصر، نتيجة التصور الآلي للعلم من جهة، وواقع الممارسات التقنية على الكائن الحي والبيئة من جهة أخرى، وقد انجرّ عن ذلك الإختلال البيولوجي

والإيكولوجي، وبذلك قد أخفق هذا التطور أخلاقيا وأصبح الوقت الراهن يبحث عن أجوبة للمسائل التي ترتبت عن الحضارة التقنو- علمية وآثارها على الحاضر وأجيال المستقبل، لهذا غدا من الواجب التحكم في نتائج الأفعال التي تتجاوز الفرد لتعرض الوجود بأسره للخطر، الأمر الذي يدفع للتساؤل عن المسؤولية الجماعية التي فرضتها التطبيقات التقنية على الإنسان، وهذا ما لا يوجد له أصول في الأخلاق التقليدية لدرجة أصبحت فيها الضرورة ملحة على إقامة أخلاق جديدة تراعى فيها المستجدات الراهنة، يقول أحد علماء البيئة: "إن أكثر مخلوق أساء للطبيعة على الأرض هو الإنسان"، ومنه فإن فهم الطبيعة والإستعانة بقوانينها من أجل استغلالها والتحكم فيها ليس إلا الخطوة الأولى في علاقة الإنسان السلبية مع بيئته، حيث انتقل من استغلال موارد الطبيعة إلى تدمير البيئة وإنهاكها واستنزاف خيراتها خلال بحثه عن علم وتقنية يحقق بهما رفاهيته وسعادته، فقد خلفت الثورة الصناعية أثارا بيئية خطيرة بفعل تزايد الطلب على الطاقة والمواد الخام، وتطورت وسائل النقل بشكل سريع، ونتج عن ذلك زيادة استغلال الموارد الغير متجددة وما ينتج عنها من تلوث الهواء والماء والتربة وتنامي حجم النفايات الكيماوية والنووية غير قابلة للتحلل، الأمر الذي أدى إلى ظهور أشكال جديدة من التلوث وأنواع جديدة من الأمراض، وبالتالي فقد طال تدمير الإنسان للبيئة أهم جوانبها البرية والبحرية والجوية، ولابد أن نشير هنا إلى الدور السلبي للحدثة باعتبارها قوة وسيطرة وهيمنة الإنسان على الطبيعة .

- إن علاقة الانسان بالبيئة هي علاقة استغلال واستنزاف لا علاقة رعاية واستخلاف، فالإنسان لا يدرك أن تدميره للبيئة هو تدمير لذاته، ومنه فإن أعظم إنجاز يمكن أن يحققه البشرية في عصرنا لن يكون العلم أو الفن أو التكنولوجيا، وإنما إدراك الخلل الوظيفي للعقل الجمعي الذي تضخم وتسارع إلى تدميره التقدم العلمي والتكنولوجي، حيث يدل استقراء الواقع عن ظهور استنتاجات تصف وتحلل العديد من المخاطر البيئية التي تشكل أحد معالم مجتمع المخاطر وتظهر في خضوع الموارد البيئية للنصب والإستغلال مؤدية لمزيد من التدهور البيئي في المستقبل بحسب تقارير المؤتمرات التي ذكرناها سابقا لصحة النظم البيئية بكوكب الأرض، وفي سياقها (المؤتمرات) ارتفعت أصوات عديدة للتدبير بانحرافات تنموية تتركس على نطاق واسع لحدود له أزمة العلاقة بين الإنسان والبيئة، والتي انطلقت من الأطروحات العقائدية الهوبزية (نسبة إلى هوبز) والمجسدة لطموحات السيطرة الميكانيكالية والمصممة في برنامج شامل لـ فرنسيس بيكون الذي يصوغ أخلاقيات جديدة تجيز استغلال الطبيعة، وقد بدا أن موارد الطبيعة ملك لها وصارت معظم المجتمعات تتقرب نهاية الطريق ، نهاية المشاريع التنموية، وربما تأكد لديهم نهاية التاريخ حسب فوكوياما.

- تقف البشرية اليوم على حافة الهاوية، وذلك بسبب التغيرات المناخية التي أخذت تعصف بالعالم جراء التلوث والعبث في الكون الذي تمارسه الدول الصناعية الكبرى، فقد شهدت أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية والصين وكثير من دول العالم مناخا ثلجيا عاصفا لم يشهده منذ عقود طويلة، فيما تهدد العواصف والأعاصير والفيضانات كثيرا من مناطق العالم بالزوال، وفي الوقت الذي تسعى فيه الدول الفقيرة للضغط على الدول الكبرى تتجه باقي البشرية للفناء، وبالتالي أصبحت المشكلات البيئية في السنوات الأخيرة تحظى باهتمام عالمي متزايد من قبل العديد من الجهات ذات الصلة.

- وبالرغم من أنّ المشكلات بدأت منذ الثورة الصناعية وما ترتب عنها من تلوث بيئي، إلا أنّ الإهتمام الحقيقي جاء متأخراً بعد أن دقت منظمة الأمم المتحدة ناقوس الخطر، أين نبأت بالمخاطر التي يتعرض لها كوكب الأرض جراء معدلات التلوث المتسارعة والتي بلغت حدّاً يتطلّب التدخل الجاد على نطاق عالمي، إذ المشكلات البيئية لها ما لها من الخطورة على مستقبل الإنسانية بكلّ أبعاده السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية.

- للدين رؤية مهمة حول البيئة، حتى أنّه برّر ووضّح السبب في ظهور المشكلات البيئية، وحذّر من الإقدام على فعل هذه الأسباب، كما أنّه قدّم طرق الوقاية من هذه المشكلات، والحديث هنا يتعلق بخاصة عن الدين الإسلامي والذي يعتبر حتى بشهادة الغربيين حامل لهذه الصفات المذكورة، وبالرغم من اختلاف هذه الرؤى إلا أنها جميعاً لديها همّ واحد وهو الخلاص من الأخطار التي تواجه البيئة وتحاول أن تقضي عليها، كما أن هذه الرؤى تتفق حول مسألة التربية والتوجيه وتنمية الوعي والمسؤولية وفكرة احترام البيئة عند الانسان، لأن ذلك سبب لخلق علاقة جديدة مع البيئة، وهي في الأساس علاقة قائمة على التعامل الحسن والعقلاني معها وهو ما يمكّن من تقليص حجم المشكلات البيئية.

قائمة المراجع:

1. 9- Jonas Hans, (1990), Le principe responsabilité, une éthique pour la civilisation technologique, Gerf, Paris.
2. Michael, p-Nelson, (2009), "Aldoleapold, environmental ethic and the land ethic Wild Life society bulletin", Allen press, 18 (4): 142-147.
3. الأخضر قويدري ، (2015)، "حاجة الاختراعات العلمية المعاصرة إلى الترشيد الأخلاقي"، مجلة أبعاد: (2) : 75 - 87
4. جان ماري، بيلت، (1994)، "عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة"، لمجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت.
5. روس، جاكليين ، (2001)، الفكر الأخلاقي المعاصر، د/ط، دار عوידات للنشر والطباعة، بيروت.
6. زهية العايب وآخرون، (2013)، الفلسفة الأخلاقية من سؤال المعنى إلى مآزق الإجراء، ط/1، منشورات الإختلاف، الجزائر.
7. زيمريمان، مايكل، (2006)، "الفلسفة البيئية من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا الجذرية"، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب: 61 (332): 327-339.
8. غصن، عبود عصام، (2006)، "دور الوعي الأخلاقي في البيئة الحياتية"، مجلة جامعة دمشق: المجلد 22 (4): 212-223.
9. المحمداوي، علي عبود وآخرون، (2014)، البيوطيقا والمهمة الفلسفية البايولوجيا ورهانات التقنية، ط/1، الرابطة العربية الأكاديمية للفلسفة.
10. مطلب، رائد عبيس وآخرون، (2015)، النظرية الأخلاقية، من سؤال التأسيس إلى اختراق الممارسة السياسية، ط/1، ابن النديم للنشر والتوزيع، بيروت.